**لماذا يخاف النبى صلى الله عليه وسلم**

**وهو المغفور له**

**ابن قيم الجوزيه**

**من كتاب طريق الهجرتين**

**فإن قيل : فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التى هى اسباب المخافة وشدة خوف النبى صلى الله عليه وسلم مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأنه أقرب الخلق الى الله ؟ عن هذا أربعة أجوبة :**

**الجواب الاول : ان هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده وكلما كان العبد اقرب الى الله كان خوفه منه اشد لانه يطالب بما لا يطالب به غيره ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها مالا يجب على غيره ونظير هذا فى المشاهد ان المائل بين يدى احد الملوك المشاهد له اشد خوفا منه من البعيد عنه بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه وانه يطالب من حقوق الخدمة وادائها بما لايطالب به غيره فهو احق بالخوف من البعيد ومن تصور هذا جق تصوره فهم قوله صلى الله عليه وسلم " إنى أعلمكم بالله وأشدكم له خشية " وفهم قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه ابو داود وغيره من حديث زيد بن ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال " إن الله تعالى لو عذب أهل سماوته واهل ارضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرا من اعمالهم " وليس المراد به لو عذبهم لنصرف فى ملكه والمتصرف فى ملكه غير ظالم كما يظنه كثير من الناس فإن هذا يتضمن مدحا والحديث إنما سيق للمدح بغير استحقاق فإن حقه سبحانه عليهم اضعاف اضعاف ما أتوا ولهذا قال بعده " ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من اعمالهم " يعنى ان رحمته لهم ليست على قدر اعمالهم اذ اعمالهم لا تستقل بأقتضاء الرحمة وحقوق عبوديته وشكره التى يستحقها عليهم لم يقوموا بها فلو عليهم والحالة هذه لكان تعذيبا لحقه وهو غير ظالم لهم فيه ولا سيما فإن اعمالهم لا توازى القليل من نعمه عليهم فتبقى نعمه الكثيرة لا مقابل لها من شكرهم فإذا عذبهم على ترك شكرهم وأداء حقه الذى ينبغى له سبحانه عليهم ولم يكن ظالما لهم**

**فإن قيل : فهم إذا فعلوا مقدورهم من شكره وعبوديته لم يكن ما عداه مما ينبغى له مقدورا لهم فكيف يحسن العذاب عليه ؟ قيل : الجواب من وجهين :**

**أحدهما : ان المقدور للعبد لا يأتى به كله بل لابد من فتور وإعراض وغفلة وتوان وايضا ففى نفس قيامه بالعبودية لا يوفيها حقها الواجب لها من كمال المراقبة والاجلال والتعظيم والنصيحة التامة لله فيها بحيث يبذل مقدوره كله فى تحسينها وتكميلها ظاهرا وباطنا فالتقصير لازم فى حال الترك وفى حال الفعل ولهذا سأل الصديق النبى صلى الله عليه وسلم دعاء يدعو به فى صلاته فقال له : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا انت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك انت الغفور الرحيم " فأخبر عن ظلمه لنفسه مؤكدا له بأن المقتضية ثبوت الخبر وتحققه ثم أكده بالمصدر النافى للتجوز والاستعارة ثم وصفه بالكثرة المقتضية لتعدده وتكثره ثم قال " فاغفر لى مغفرة من عندك " أى لا ينالها عملى ولا سعيى بل عمل يقصر عنها وانما هى من فضلك واحسانك لا بكسبى ولا باستغفارى وتوبتى ثم قال " وارحمنى " اى ليس معولى الا على مجرد رحمتك فإن رحمتنى وإلا فالهلاك لازم لى فليتدبر اللبيب هذا الدعاء ومافيه من المعارف والعبودية وفى ضمنه : إنه لو عذبتنى لعدلت فىّ ولم تظلمنى وإنى لا أنجو الا برحمتك ومغفرتك ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم " لن ينجو أحدا منكم عمله " قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل " فإذا كان عمل العبد لا يستقلبالنجاة فلو لم ينجهه الله فلم يكن قد بخسه شيئا من حقه ولا ظلمه فإن ليس معه ما يقتضى نجاته وعمله ليس وافيا بشكر القليل من نعمه فهل يكون ظالما لو عذبه ؟ وهل تكون رحمته له جزاء لعمله ويكون العمل ثمنا لها مع تقصيره فيه وعدم توفيته ما ينبغى له من بذل النصيحة فيه وكمال العبودية من الحياء والمراقبة والمحبة والخشوع وحضور القلب بين يدى الله فى العمل له ؟ ومن علم هذا السر فى كون اعمال الطاعات تختم بالاستغفار ففى صحيح مسلم عن ثوبان قال : كان رسول الله صلى الله عغليه وسلم إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا وقال : " اللهم انت السلام ومنك السلام تباركت يذا الجلال والاكرام قال الله تعالى ( الذاريات 17 – 18 ) " كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالاسحار هم يستغفرون " فأخبر عن استغفارهم عقيب صلاة الليل قال الحسين : مدو الصلاة الى السحر فلما كان السحر جلسوا يستغفرون الله وامرل الله تعالى عبادة بالاستغفار هقيب الافاضة فى الحج فقال ( البقرة 100 ) ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ) وشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتوضىء ان يختم وضوءه بالتوحيد والاستغفار فيقول " أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله اللهم اجعلنى من التوابين واتجعلنى من المتطهرين " فهذا ونحوه مما يبين حقيقة الامر وان كل احد محتاج الى مغفرة الله ورحمته وانه لا سبيل الى النجاة بدون مغفرته ورحمته اصلا**

**الجواب الثانى : انه لو فرض ان العبد يأتى بمقدوره كله من الطاعة ظاهرا وباطنا فالذى ينبغى لربه فوق ذلك واضعاف اضعافه فإذا عجز العبد عنه لم يستحق ما يترتب عليه من الجزاء والذى اتى به لا يقابل اقل النعم فإذا حرم جزاء العمل الذى ينبغى للرب من عبده كان ذلك تعذيبا له ولم يكن الرب ظالما فى هذا الحرمان ولو كان عاجزا عن اسبابه فإنه لم يمنعه حقا يبستحقه عليه فيكون ظالما بمنعه فإذا اعطاه الثواب كان مجرد صدقة منه وفضل تصدق بها عليه لا ينالها عمله بل هى خير من عمله وافضل واكثر ليست معاوضة عليه والله اعلم**

**الجواب الثالث عن السؤال الاول**

**إن العبد اذا علم ان الله سبحانه وتعالى هو مقلب القلوب وانه يحول بين المرء وقلبه وانه تعالى كل يوم هو فى شأن يفعل مايشاء ويحكم ما يريد وأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء فما يؤمنه ان يقلب الله قفلبه ويحول بينه وبينه ويزيغه بعد إقامته ؟ وقد أثنى الله على عباده المؤمنين بقولهم ( أل عمران 8 ) " ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا " فلولا خوف الإزاغة لما سألوه ان لا يزيغ قلوبهم وكان دعاء النبى صلى الله عليه وسلم " اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك " زمثبت القلوب ثبت على قلوبنا على دينك " وفى الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم انه كان يدعو " اعوذ بعزتك ان تضلنى انت الحى الذى لايموت " وكان من دعائه " اللهم بصفة الرضا من صفة الغضب وبفعل العافية من عقوبتك واستعاذ به منه باعتبارين وكان استعاذته منه جمعا لما فصله فى الجملتين قبله فإن الاستعاذة به منه ترجع الى معنى الكلام قبلها مع تنضمنها فائدة شريفة وهى كمال التوحيد وان الذى يستعيذ به العائد ويهرب منه إنما هو فعل الله ومشيئته وقدره فهو وحده المنفرد بالحكم فإذا أراد بعبده سوءل لم يعذه منه إلا هو فهو الذى يريد به ما يسوده وهو الذى يريد دفعه عنه فصار سبحانه مسيتعاذا به منه باعتبار الارادتين " الانعام 17 " ( وإن يمسسك الله بضر فلا كاتشف له إلا هو ) فهو الذىيمس بالضر وهو الذى يكشفه لا إله إلا هو فالمهرب منه اليه والفرار منه اليه واللجأ منه اليه كما ان الاستعاذة منه فإنه لا رب غيره ولا مدبر للعبد سواه فهو الذى يحركه ويقلبه ويصرفه كيف يشاء**

**الجواب الرابع : ان الله سبحانه وتعالى هو الذى يخلق افعال العبد الظاهرة والباطنة فهو الذى يجعل الايمان والهدى فى القلب ويجعل فيه التوبة والانابة والاقبال والمحبة والتفويض وأضدادها والعبد فى كل لحظة مفتقر الى هداية يجعلها الله فى قلبه وحركات يحركه بها طاعته وهذا الى الله سبحانه وتعالى فهو خلقه وقدره وكان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم " اللهم ات نفوسى تقواها وزكها انت خير من زكاها انت وليها ومولاها " وعلم حصين بن المنذر ان يقول " اللهم الهمنى رشدى وقنى شر نفسى " وعامة ادعيته صلى الله عليه وسلم متضمنة لطلاب توفيق ربه وتزكيته له واستعماله فلى محابه فمن هداه وصلاحه واسباب نجاته بيد غيره وهو المالك له ولها المتصرف فيه بما يشاء ليس من امره شىء من احق بالخوف منه ؟ وهب انه قد خلق له فى الحال الهداية فهل هو على يقين وعلم ان الله سبحانه وتعالى يخلقها له فى المستقبل ويلهمه رشده ابدا ؟ فعلم ان خوف المقربين عند ربهم اعظم من خوف غيرهم والله المستعان ومن ههنا كان خوف السابقين من فوات الايمان كما قال بعض السلف : انتم تخافون الذنب وانا اخاف الكفر وكان غمر بن الخطاب يقول لحذيفة : نشدتك الله هل سمانى لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ( يعنى فى المنافقين فيقول : لا ولا أزكى بعدك احدا " يعنى لا أفتح على هذا الباب فى سؤال الناس لى وليس مراده انه لم يخلص من النفاق غيرك**